

إعادة النظر في السمات التحريرية لمجتمعنا الشفاف

مراجعة فلسفية لفكر جيانى فاتيمو

■ سانتياغو زابالا

ف قليلٌ هم الفلاسفة الذين يُعيدون النظر في رؤاهم؛ ذلك أنها مهمة عسيرة حقاً أن يُقَرَّ المرء على نفسه بأنه نسي أمراً أو وقع في غلط، وعادة ما تكون إعادة النظر في عمل الفيلسوف المبكر ثمرة انتقاداتٍ تبدي عن مواقع الغلط، لكن يحدث في بعض الأحيان أن يُقر فيلسوف - من تلقاء نفسه - بأن ثمة أمراً ما تبين أنه غلط، وأنه يتعين تصويبه؛ لكن لا يزال من النادر جداً أن يعتمد فيلسوف يملك من النزاهة ما يدعوه إلى الإقرار بأن أطروحته تحتاج إلى إعادة نظر. في معظم الأوقات يكون الفلاسفة على يقين من أفكارهم، ويموتون قبل أن يقبلوا بأي غلط. وما كان الاختلاف بين الاستجابات مسألة نزاهة فكرية نحو القراء والزملاء والطلبة فحسب؛ وإنما هو أيضاً مسألة مزاج. ويصدق هذا الأمر بالخصوص في حالة مارتن هايدغر؛ إذ فضلاً عن رفضه الاعتذار عن الانتماء إلى النظام النازي - والذي كان زلته العظمى - فإنه لم يقر أبداً أن أحد طلبته (إرنست توجندهات) كان مصدر التصويب الذي أجراه على كتابه «الكينونة والزمان» عام 1956. على أن ثمة أمثلة أخرى

■ أستاذ فلسفة وباحث بجامعة بومبو فابرا ببرشلونة (إسبانيا).



شأن لودفيغ فيتغنشتاين وروبرت نوزيك، اللذين أقرّا بغلطهما وأجريا تعديلات؛ فالأول ذكّر - في كتابه «أبحاث فلسفية» - أنه كان من الخطأ الإيمان بأن السيمنتيقا [علم الدلالة أو الدلائيات] يمكنها أن تحل كل القضايا الفلسفية، كما كان اعتقد بذلك جازماً من قبل؛ وأعلن الثاني أن «الموقف الحُرّياني [الليبرتاري] - الذي كنت قد دعوت إليه بالأمس - بات يبدو لي اليوم - بجد - موقفاً غير مناسب بالمرة. ويعود الأمر في ذلك - جزئياً - إلى أنه لم يأخذ بعين النظر بما يكفي الامور الإنسانية، وأنشطة التعاون التي تنشأ عنها»¹. والحال أن هذه الأخطاء وتصويباتها أمر مهم؛ لأن من شأنها أن تنبه إلى الطابع العرضي لأفكار ودعاوى ومواقف حتى أعظم الفلاسفة، وما كان جيانى فاتيمو يدعاً من هذا.

يتبوا كتاب جيانى فاتيمو الموسوم باسم «المجتمع الشفاف» (1989) منزلة خاصة في أعمال الرجل؛ وذلك لأنه الكتاب الوحيد الذي آمن بأنه

1 - حول نزعة هايدغر النازية يرجى النظر في كتاب جريجوري فريد: «مات الملك: دفاتر هايدغر السوداء».

“The King Is Dead: Heidegger’s ‘Black Notebooks,’” *Los Angeles Review of Books*, September 13, 2014, <https://lareviewofbooks.org/article/king-dead-heideggers-black-notebooks>.

بعد شهرين من إلقاء توجدهات محاضرة «فكرة هايدغر عن الحقيقة» (1964) حيث صاغ لأول مرة نقده تجاه فكرة هايدغر عن الحقيقة بوصفها «انكشافاً» و«انجلاء» و«تبدياً» أو «بدوياً» Aletheia، كتب هايدغر يقول: «ما كان إبداء سؤال «الألتيا» - الانكشاف من حيث هو انكشاف - بمثل طرح سؤال الحقيقة. ولهذا الداعي كان من غير المناسب - بل ومن المضلل - أن نطلق على «الألتيا» - إذ هي تعني «الانفتاح» - اسم الحقيقة». انظر: هايدغر: «نهاية الفلسفة ومهمة الفكر» ضمن كتابه: «في الزمان والكيونة»:

Heidegger, *On Time and Being*, trans. J. Stambaugh (Chicago: Chicago University Press, 2002), 70.

يمكن للقارئ أن يعثر على إعادة سرد تامة لهذه القضية في الفصل الثاني من كتاب سانتياغو زابالا: «الطبيعة التأويلية للفلسفة التحليلية: دراسة لإرنست توجدهات»:

Santiago Zabala, *The Hermeneutic Nature of Analytical Philosophy: A Study of Ernst Tugendhat* (New York: Columbia University Press, 2008).

أما قولة نوزيك، فمستمدة من كتابه: «الحياة المفحوصة»، (ص 286 - 287):

Robert Nozick, *The Examined Life* (New York: Simon and Shuster, 1989).

يحتاج إلى إعادة نظر فيه، وذلك في مناسبات عدة، كرّر فيها الرجل هذا المطلب. على أن إعادة النظر هذه في هذا الكتاب لا توجد فحسب في الطبعة الإيطالية الثالثة (2000) - على شاكلة مقدمة جديدة وفصل مزيد - وإنما أيضاً في العديد من المقابلات التي أُجريت معه، وفي مقاطع عدة من كتبه، وفي حواشٍ كانت من قبل غير منشورة، وباتت اليوم متوفرة في أرشيفاته². ولقد تضمن كتاب جيانى فاتيمو الأخير - «الكيونة ومتعلقاتها» (2018) - فصلاً نذره إلى أطروحة هذا النص الأساسية في صلتها بالتوتاليتارية. وعلى الرغم من أن جيانى فاتيمو حرر مقدمات جديدة عدة

إنّ جيانى فاتيمو حرر مقدمات جديدة عدة لكتبه؛ فإن هذا النص هو النص الوحيد الذي ما فتى يؤوب إليه الأوبات ما أن نشره منذ ثلاثين سنة خلت. وإن غاية هذه المقالة لهي تأويل هذه المراجعات لا بحسبانها تصويبات، بقدر ما بحسبانها إسهامات في الوجود المستقل.

لكتبه؛ فإن هذا النص هو النص الوحيد الذي ما فتى يؤوب إليه الأوبات ما أن نشره منذ ثلاثين سنة خلت. وإن غاية هذه المقالة لهي تأويل هذه المراجعات لا بحسبانها تصويبات، بقدر ما بحسبانها إسهامات في الوجود المستقل، في مجتمع أبى فيه «كل شيء اللهم إلا أن يكون شفافاً حقاً»، على نحو ما خط ذلك جيانى فاتيمو نفسه في سيرته الذاتية³.

نشر كتاب «المجتمع الشفاف» عام 1969، وقد تلا كتباً خمسة مهمة رسمت فكر فاتيمو خلال سنوات الثمانينات: «مغامرات الاختلاف:

الفلسفة بعد نيتشه وهايدغر» (1980)، و«فيما وراء الذات: نيتشه وهايدغر والهرمنوطيقا» (1981)، و«الفكر الضعيف» (بالاشتراك مع بيير ألدو روفاني 1983)، و«نيتشه: مدخل» (1984)، و«نهاية الحداثة: العدمية والهرمنوطيقا

2 - يمكن العثور على أرشيفات جيانى فاتيمو في مكتبة جامعة بومبو فايرا في برشلونة. وتعدّ الصناديق الأرشيفية التي تحمل رقم 16 و 28 و 34 شديدة الأهمية بهذا الخصوص؛ وذلك لأنها تشمل أرسومات أولية لإعادة تحرير كتاب «المجتمع الشفاف» ومراجعات لدارسين آخرين مرفوقة بحواشٍ جيانى فاتيمو نفسه.

3 - Gianni Vattimo, *Not Being God: A Collaborative Autobiography*, with Piergiorgio Paterlini, trans. William McCuaig (New York: Columbia University Press, 2009), 88.



في ثقافة ما بعد الحداثة» (1985)⁴. والحال أن المدخل إلى نيتشه بمثابة دراسة مونوغرافية عن مفاهيم الفيلسوف الألماني الجوهريّة، هذا بينما سعت الكتب الأخرى إلى فهم الوضع الحداثي من خلال التأويلات الفلسفية. وقد مكّنت التأويلات التي كانت على وجه الدوام في صلب بحوث جياني فاتيمو - كما تبدي ذلك دراساته السابقة عن شلايرماخر وجادامير ونيتشه - من إضعاف المفاهيم الميتافيزيقية التي توجد في صلب تقليدنا الفلسفي. والمسألة - التي جوبهت أيضاً من لدن جاك دريدا وريتشارد رورتي ويورغن هابرماس - ما تمثلت فيما إذا كان يتعيّن تجاوز الميتافيزيقا والحداثة، وإنما تمثلت بالأولى في كيف ينبغي لهذا التجاوز أن يأخذ مكانه من خلال نزوع ما بعد الحداثة.

في الكتاب الذي تقدّم كتاب «المجتمع الشفاف»، كان قد اقترح جياني فاتيمو ألا يتم تأويل ما بعد الحداثة بوسمها «قطيعة» جذرية مع الحداثة؛ وإنما بالأحرى بوصفها موقفاً جديداً قميناً بتجاوز هوسات فلسفة الأنوار الموضوعية. وبغاية تفسير هذا الموقف الجديد استعمل جياني فاتيمو اصطلاح هایدغر الموقوفين عليه: وهما مفهوما هایدغر الألمانين *Überwindung* و *Verwindung*. وهذا المفهوم الأخير يوحي بتجاوز الحداثة عن طريق عملية «الحفظ» و«الرفع» معاً - التجاوز والاحتفاظ معاً - *Auhebung* ذات الدلالة الهيجلية؛ بما يعنيه من «التجاوز» الذي يذهب إلى ما وراء الأسس الحديثة، ويتركها خلف ظهره؛ لكنه يؤوب إليها ويسقط

4 - كل هذه الكتب باتت اليوم متوفرة باللسان الإنجليزي:

The Adventure of Difference: Philosophy After Nietzsche and Heidegger (1980), trans. Cyprian Blamires and Thomas Harrison (Cambridge: Polity Press 1993); *Beyond the Subject: Nietzsche, Heidegger, and Hermeneutics* (1981), trans. Peter Carravetta (Albany: SUNY Press, 2019); *Weak Thought*, with Pier Aldo Rovatti (1983), trans. Carravetta (Albany: SUNY Press, 2012); *Nietzsche: An Introduction* (1984), trans. Nicholas Martin (Stanford, CA: Stanford University Press, 2002); and *The End of Modernity: Nihilism and Hermeneutics in Postmodern Culture* (1985), trans. Jon R. Snyder (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1988).

كما أن بيليوغرافيا جياني فاتيمو متوفرة في موقع أرشيفاته:

<https://www.upf.edu/en/web/gianni-vattimo/arxius>.

فيها من جديد ويستأنفها. وبالبديل من ذلك فإن اصطلاح *Verwindung* سوف يقودنا إلى التفكير في «الانعطاف نحو غايات جديدة»، تختلف عن وضع الحداثة و«تجاوزه»، و«تعطف عنه» و«تستقيه» و«تقبله على سبيل السخرية»⁵. وبوفق هذا المعنى الثاني قدم إلينا جيانى فاتيمو فكرة «الفكر الضعيف» *pensiero debole* بوصفها وجهاً من أوجه الموقف والمقاربة ما بعد الحداثية ليس فقط من الحداثة، وإنما من المجتمع بالمعنى الأوسع أيضاً.

لقد مكّنت التأويلات التي كانت على وجه الدوام في صلب بحوث جيانى فاتيمو - كما تبدي ذلك دراساته السابقة عن شلايرماخر وجادامير ونيتشه - من إضعاف المفاهيم الميتافيزيقية التي توجد في صلب تقليدنا الفلسفي.

وفي الطبعة الأولى من كتاب «المجتمع الشفاف» (1989) ادعى جيانى فاتيمو أن بروز وسائل الاتصال في الثمانينات إنما كان يسير ضد سمتي الحداثة الرئيسيتين: تعميم السيطرة، وتحقيقها في التاريخ. ولهذا السبب رأى جيانى فاتيمو أن انحلال فكرة التاريخ الخطي - أي فكرة تاريخ كوني يمكن أن يُفرض على الآخرين - أحد أهم الأحداث التي تعلن عن نهاية الحداثة: «إن استحالة التفكير في التاريخ بحسبانه ذا اتجاهٍ خطيٍ واحد... لم

تنبع فقط من أزمة النزعة الاستعمارية والإمبريالية الأوروبية، وإنما كانت أيضاً - بل وفوق هذا - ثمرة ميلاد وسائل الاتصال الجماهيرية»⁶؛ ذلك أن نهاية «المرويات الكبرى» - كما كان قد أطلق عليها فرانسوا ليوتار هذه التسمية - أخذت مكانها في التحول السريع من الميكانيكا إلى التكنولوجيا الإعلامية؛ حيث تعدد التاريخ تعدده وتحلل تحلله. والحال أن هذا التحلل مرتبط بطموح جيانى فاتيمو إلى إضعاف فكرة «الواقع» - ذاك «الواقع»

5 - حول هذا التمييز المهم يرجى النظر في: James Risser, "On the Continuation of Philosophy: Hermeneutics as Convalescence," in *Weakening Philosophy: Essays in Honor of Gianni Vattimo*, ed. Santiago Zabala (Montreal: McGill-Queen's University Press, 2007), 184-202.

6 - Vattimo, *The Transparent Society* (1989), trans. David Webb (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1992), 5.



الذي كان يحيل إليه هايدغر بوسمه ميتافيزيقا، وأحال عليه دريدا بوصفه تركزاً على العقل.

مكّن معنىً ضعيف للواقع - كما للحقيقة وللكينونة أيضاً - جيانى فاتيمو من استبدال المثال الحديث للتححرر - الذي تشكل من «وعي بالذات متيقظ صاح» - بمثال للتححرر قائم على الاختلاف والتعدد والشفافية. وللإحاطة بهذا المثال الأخير، فإنه من المهم جداً تأويل الفوضى النسبية التي أنشأتها وسائط الاتصال بحسابها فرصة أكثر مما بوسمها مشكلة؛ ذلك أن تعدد الصور والمنظورات يشكل أملاً للانعتاق والتحرر، ليس فقط من مقاومة فكرة مروية للمعرفة وللحقيقة واحدة، وإنما أيضاً لتلك الأصوات التي تم إهمالها. وإنما التححرر يكمن في «فقدان الاتجاه، والذي هو في الوقت عينه أيضاً تحرير للاختلافات والعناصر المحلية لما يمكن أن يدعى بعامة الجدل. فمع استقالة فكرة عقلانية للتاريخ من أمرها أن تكون مركزية؛ فإن عالم التواصل المعمم انفجر بوصفه تعدداً من العقلانيات «المحلية» - الأقليات الإثنية والجنسية والدينية والثقافية أو الاستتيعية - والتي انتهت إلى التعبير عن نفسها بنفسها»⁷. وعلى الرغم من أن إضعاف «مبدأ الواقع» قد فسخ المجال أمام تحرير الاختلافات؛ فإن جيانى فاتيمو أقرّ بأن «مشكلة منزلته النقدية أصبحت بالطبع أمراً مستعجلاً»⁸.

وبغاية تصحيح النتائج التي لا يمكن تلافياها لتكنولوجيا التواصل الشامل؛ فإنه بات من الضروري وضع أرسومة بمعالم فلسفة تنظّر لتجربة الواقع بحسابها انتماء، بدل أن تعدها بحسابها انعكاساً. وإذ تم تحديد التأويلات من حيث هي «فلسفة عصر رؤى العالم وصراعها الذي لا يمكن تفاديه»؛ فإنه يمكنها أن تساعدنا على الإقرار بأن «ما من شيء من شأنه أن يبيث عبر وسائل الإعلام، إلا ومن أمره أن ينطبع بنفحة غربية من الهشاشة والسطحية»⁹. وعلى

Vattimo, *The Transparent Society*, 9.

- 7

Vattimo, *The Transparent Society*, 26.

- 8

Vattimo, *The Transparent Society*, 113.

- 9

خلاف فلاسفة آخرين ظلوا مرتبطين بقبول جادامير غير النقدي للتراث، يؤمن جيانى فاتيمو بأن التأويليات موقف فلسفى لا يُنظر للطبيعة التأويلية للحقيقة فقط، وإنما يشمل أيضاً عالم ما بعد الحداثة المتمس بالفوضى وبالشفافية. [وقد كتب جيانى فاتيمو يقول]: «إنما التأويليات فلسفة هذا العالم الذى قد تُعطى فيه الكينونة فى شكل ضعف أو تحلل. وإن الدعوى القائلة: «لا وجود لوقائع، وإنما توجد تأويلات وحسب» لتكتسى معنى مختزلاً، هو فقدان الواقع، والذى هو أمر أساسى للتأويليات»¹⁰. على أن فقدان الواقع هذا يعدّ أيضاً بمثابة إشارة إلى «الأثار العدمية للتأويليات» التى استملى معالمها جيانى فاتيمو من فكرة نيتشه عن فقدان القيم لقيمتها¹¹.

**بغاية تصحيح النتائج
التي لا يمكن تلافيها
لتكنولوجيا التواصل
الشامل؛ فإنه بات من
الضروري وضع أرسومة
بمعالم فلسفة تنظر
لتجربة الواقع بحسبانها
انتماء، بدل أن تعدها
بحسبانها انعكاساً.**

والحال أن نتائج هذا فقدان تقع فى قلب مراجعات جيانى فاتيمو فى عمله هذا [المجتمع الشفاف]؛ ذلك أن التصدير والفصل الجديدين - المزيدين فى الطبعة الثالثة من [كتاب «المجتمع الشفاف» - يجيبان عن هذه المسألة، بالتنبيه إلى أنه رغم أن الفكرة العامة الملهمة للكتاب - إمكانات التحول الجذري التى أضفاها الطابع الاتصالي/ الإعلامى على وجودنا - ما زالت فى حكم الأمر القائم؛ فإنه «بات اليوم

يحتاج الأمر إلى ضرب من التفاؤل - المتعلق بالوظيفة التحريرية لوسائط الاتصال - إلى إعادة النظر فيه. لكن هذا لا يعنى قطعاً وضع المقاربة الفلسفية العامة موضع نظر، وإنما يفيد بالأولى إيجاد منافذ للمشاكل

10 - كما بين ذلك أشلي وودوارد فى كتابه «العدمية وما بعد الحداثة» (2009):

Nihilism and Postmodernity (Aurora, Colorado: Davies Group Publishers, 2009)

فإن دلالة العدمية فى زمن ما بعد الحداثة أمر يقع فى صلب فلسفة ليونار وبودريار وفاتيمو.

Vattimo, *The Transparent Society*, 117.

11 -

حول المعنى الأنطولوجى للتكنولوجيا، انظر:

Erik M. Vogt, "Postmodernity as the Ontological Sense of Technology," in Silvia Benso and Brian Schroeder (eds), *Between Nihilism and Politics* (Albany: SUNY, 2010), 221-240.

- لا سيما منها السياسية بالأولى - التي خلقها تطوُّر وسائل الاتصال الحديثة وأثرها الاجتماعي»¹². أفضى جيانى فاتيمو إلى لوكا سافارينو وفيدريكو فرسيلوني: «عندما أعددت الطبعة الثانية من كتابي هذا - «المجتمع الشفاف» - كان آنذاك قد بدأ يسود الشعور بضرب من الأوبة إلى الشيوعية، وإلى نقد المجتمع المعاصر»¹³. ومن بين العديد من الأحداث التي حملته على إعادة النظر في موقفه كان انتخاب سلفيو برلوسكوني عام 1994؛ ذلك أن كون مالك أكثر الأسهم في شبكات التلفزيون والمجلات الإيطالية بات بإمكانه أن يستعمل بسط سلطانه - على هذه الوسائل - للعود إلى السلطة صعوداً ديمقراطياً - إنما أظهر بما لا مجال للشك فيه أن التحول التكنولوجي ما عاد يقتضي بالضرورة حدوث التحرر الذي لطالما تمَّ نشدانه حقاً.

وكما يمكن أن نعاين ذلك فإن التفاؤل العام تجاه تكنولوجيات التواصل الشاملة - والذي برز بوصفه رداً على معاداة ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر لواقع «صناعة الثقافة» الناشئ - إنما تسبب فيه «غياب محرك مركزي يحدد كل إطارات التروس الأخرى»؛ ذاك الأمر الذي لطالما أزعج مؤسسي مدرسة فرانكفورت؛ فالتحول من «إطارات التروس التي تتحكم فيها محطة مركزية إلى النموذج الأفقي للشبكة قد بدا - للعديد من المفكرين - فرصةً للقطع والتحرر من صورة لالأخ الأكبر [العرب]، الذي كان يتحكم في كل شيء، ويوجه الجماهير عن طريق الدعاية»¹⁴. والحال أن ضحايا هذه النزعة التفاؤلية لم

12 - Vattimo, *La società trasparente* (Milan: Garzanti, 2000), 4.

13 - Vattimo, "Philosophy as Ontology of Actuality: A biographical-theoretical interview with Luca Savarino and Federico Vercellone," *Iris* 1, no. 2 (October 2009): 348.

14 - Vattimo, *La società trasparente*, 103.

وقد فسّر جيانى فاتيمو في مقابلة معه عام 2009 هذا الأمر بالقول التالي: «أعتقد أنني أمنت أكثر من اللازم بالتكنولوجيا وبإمكاناتها التحريرية الانعناقية، وهو منظور يمكن تفسيره بوصفه ضرباً من رد الفعل ضد رؤية أدورنو التشاؤمية. لقد شعرتُ بأن عليّ أن أصقّي الحساب مع الطريقة التي كَفَّر بها أدورنو وهايدغر المجتمع التكنولوجي. لربما وفق هذا المعنى كانت معارضتي لمنظور مدرسة فرانكفورت قد قادتني إلى التشديد أكثر من اللازم على حدث كون الإنسان بات مستجاراً من لدن الداعي التكنولوجي والذي - كما بدا لي أنها - كان يمتلك إمكاناً تحريراً».

Vattimo, "Philosophy as Ontology of Actuality," 348.

يكونوا يشملون المنظرين ما بعد الحداثيين فقط؛ وإنما بات يشمل منظرين نقديين أيضاً شأن هابرماس الذي ما أمكن لنظريته في الفعل التواصلي أن تبزغ، اللهم إلا في ظل مثل هذه الظروف؛ ذلك أن «الوضع المثالي للخطاب» - الذي قامت على أساسه نظرية هابرماس الكبرى في الفعل التواصلي - إنما حقيقته ما باتت توفره لنا اليوم شبكة الإنترنت. لكن، وكما تعلمنا ذلك من تناسل القنوات التلفزيونية والجرائد، والأن غوغل والفيسبوك، فإنها لا تمثل توسُّعاً للمجال العمومي على الحقيقة، بقدر ما تمثل استيطانه / استعمارها عن لدن «توتاليتارية شفافة».

**إنّ التفاؤل العام تجاه
تكنولوجيات التواصل
الشاملة - والذي برز
بوصفه ردّاً على معاداة
ثيودور أدورنو وماكس
هوركهايمر لواقع «صناعة
الثقافة» الناشئ - إنما
تسبب فيه «غياب محرك
مركزي يحدد كل إطارات
التروس الأخرى».**

وبغاية فهم كيف أن التفاؤل بأمر «المجتمع الشفاف» قد انقلب إلى توجُّسٍ من «التوتاليتارية الشفافة»، حسب جيانى فاتيمو أن علينا أن نعتبر بالتحويلات الاجتماعية والسياسية التي طرأت بعد 11/9 سبتمبر مع الحرب على الإرهاب؛ ذلك أن التهوس بالأمن القومي «جعلنا من الشفافية بمكان بحيث لا خلط ولا تبلبل؛ فمحركات البحث صارت تحشد لنا من البدء ركاماً هائلاً من المعلومات؛ بحيث بدا أنه بات لا يمكن تصور

أية حرية تبزغ من انعدام اليقين أو من الخلط»¹⁵. وعلى خلاف بقية المفكرين الذين حللوا هذه التحويلات؛ فإن جيانى فاتيمو كان قادراً كذلك على تجريب اكتساب خبرة مباشرة بهذا الهوس بالأمن من داخل البرلمان الأوروبي، وذلك بعد ظفره بمقعدٍ عام 1999. وبوسمه عضواً في مختلف اللجان المتعلقة بهذا الشأن لاحظ جيانى فاتيمو كيف أن الشفافية التامة التي كانت قد وعدت بها التكنولوجيا لا تزال راسخة في علاقات السلطة القائمة بالفعل:

15 - Vattimo, *Essere e dintorni*, ed. by Giuseppe Iannantuono, Alberto Martinengo, and Santiago Zabala (Milan: La Nave di Teseo, 2018), 186-87.



«في عالم حيث التكنولوجيا والاقتصاد يندمجان على وجه الدوام، فإن شفافية وسائل الاتصال الموعود بها لا يمكن إلا أن تتحول إلى ثقافة رقابة جماهيرية، وإن الحركات والتحوليات - بغض النظر عمّا إذا كانت مركزية أم هامشية - لا يمكن أن يتسامح معها أو تنهض نهوضاً حراً... وما نعلمه الآن علم اليقين هو أن الشفافية - التي أملنا أن تكون طبيعتها متلازمة مع تحرر بابلي [تعددي] - ما عادت ملتبسة بالمرّة... وإذ صارت موصولة على الدوام بالعولمة؛ فإنها أصبحت سمة للسيطرة الشاملة على كل شيء، وهي التي ما عادت بالمرّة هي «الحقيقة»؛ وإنما أمست بالذات ما يضاد الحقيقة بالتمام والكمال»¹⁶.

وهكذا، فإنه بقدر ما يتعلق الأمر بالتحرر والانعتاق؛ فإن آثار توسيط وجودنا المشوّهة لهذا الوجود أمست في قلب إعادات النظر والمراجعات التي قام بها جيانى فاتيمو في الثلاثين سنة الأخيرة. والحقيقة أنه لم تشع هذه المراجعات إلى التنسيب من التفاؤل بالوظيفة التحررية لوسائل الاتصال؛ وإنما صلحت أيضاً لإنجاز إسهامات مستقلة في الفلسفة. ولهذا السبب فإن جيانى فاتيمو - من خلال هذه المراجعة - أعطى مكانة خاصة لمهارة التأويليات «السياسية»؛ تلك المهارة المتمثلة في مقاومة الطبيعة التوتاليتارية لتكنولوجيا الاتصال؛ ذلك أن التأويليات على سبيل المثال - وعلى خلاف نظرية هابرماس النقدية - تسعى إلى التحرر، لا عبر المعرفة الموضوعية؛ وإنما بالأولى عبر الطبيعة التأويلية للحقيقة ولإضعاف الواقع. ويشرح لنا جيانى فاتيمو الأمر حين يرى أنه بينما هابرماس «كان دائماً تابعاً (عن طريق أدورنو) لمثال موضوعي هيغلي وماركسي شافّ لذاته، فإن التأويليات - بالبدل من ذلك - هي وريثة نيتشه. كلا؛ ما كانت المسألة مسألة تحرر من التأويليات، وإنما هي بالأحرى مسألة تحرر التأويليات؛ من سيطرة الحقيقة والدعاوى»¹⁷.

Vattimo, *Essere e dintorni*, 191-92.

- 16

Vattimo, *La società trasparente*, 105.

- 17

وما كانت مراجعات جيانى فاتيمو «لحظة أزمة»، وإنما هي بالأولى «لحظة تجذير راديكالية». وهذا واضح في دعوته ليس فقط إلى أن نصير مؤولين مستقلين ضد الشفافية التوتاليتارية التي تدمغ واقعنا بدمغتها؛ وإنما فضلاً عن هذا دعوته لنا بأن نقاوم تلك الحدود «الواقعية»، التي تعوق «نزع الطابع الواقعي» عن الواقع نفسه. وقد كتب جيانى فاتيمو يقول: «البزوغ الحديث للنزعة الأصولية من مختلف الأطياف، والتي أمسّت سائرة إلى التمكن عبر العالم؛ إنما هي ضرب من رد الفعل ضد فوييا الأماكن العمومية الفسيحة، كما هي عودة جنينية إلى آفاق ضيقة وثابتة، شأن تلك الآفاق المتعلقة بالأسرة والجماعات المحلية والإثنية والطائفية الدينية»¹⁸.

إنّ «المجتمع الشفاف» ومراجعاته أمران مفيدان اليوم لمقاومة العودة السائرة إلى النظام، والتي تشجع عليها ظاهرة توسيط أنماط وجودنا بواسطة أدوات التواصل والإعلام؛ وذلك بسبب ما يتوفر من فلسفة تقديمية يمكنها أن تجيب عن هذه التحديات.

ولئن كانت تلك الأوبة إلى النظام أمراً بات مشعوراً به اليوم على نحو واسع - كما يتجلى في بروز رجال سياسة اليمين المتطرف على نحو ما يظهر ذلك عبر العالم - فإن ذلك عائد أيضاً إلى التعزيز الذي تعزز به وسائل التواصل الاجتماعية ذلك الأمر.

إن «المجتمع الشفاف» ومراجعاته أمران مفيدان اليوم لمقاومة العودة السائرة إلى النظام، والتي تشجع عليها ظاهرة توسيط أنماط وجودنا بواسطة أدوات التواصل والإعلام؛ وذلك بسبب ما يتوفر من فلسفة تقديمية يمكنها أن تجيب

عن هذه التحديات¹⁹. وهكذا فإنه عندما يتم فهم التأويل بحسبانه وجهة نظر أنطولوجية وعملية؛ فإنه يمكن أنها أن يقاوم الآثار «الشفافة» و«الحيادية»

Vattimo, *La società trasparente*, 117.

- 18

Byung-Chul Han, *The Transparent Society* (Stanford: Stanford University Press, 2015).

- 19

على سبيل المثال يرى هذا الباحث الشفافية مثلاً باطلاً ينبغي تجاوزه من دون أن يقترح كيف يمكن ذلك. ويمكن العثور على مقاربة مختلفة في الإسهامات الواردة في الكتاب الجماعي:

Emmanuel Alloa and Dieter Thomä, eds., *Transparency, Society, and Subjectivity* (London: Palgrave Macmillan, 2018).



للوغاريتمات المعلومات الكبرى ووسائط الاتصال الاجتماعية، التي باتت تراقب حياتنا مراقبة وتوجهها توجيهاً؛ ذلك أن من شأن التأويل الهرمنوطيقي ألا يكشف عن قناع تواطؤ وسائل الاتصال مع النظام المالي الهيمني الشمولي فحسب، والتي يشار إليها عادة باسم «رأسمالية المراقبة»، وإنما يصلح أيضاً بوسمه ممارسة يمكنها أن تصون فكرة هايدغر عن حدث الكينونة [بِدُوْ / تجلي الكينونة] التي تميّز وجودنا. وقد أظهرت صيحات إنذار حديثة - مثل تلك التي أطلقها كريستوفر وايلي، المتعلقة بتورط شركة كامبريدج أناليتكا في البريكست، وانتخاب ترامب عام 2016 - أنها قد حظيت باهتمام لافت؛ لأنها أظهرت كيف أن شفافية (وسائط التواصل الاجتماعية) إنما باتت موجهة نحو اختزال وجودنا الاجتماعي في موضوعات إحصائية في نظام الإنتاج والاستهلاك. و ضد هذا الاختزال يؤمن جيانى فاتيمو بأن التأويليات يمكن أن تعيننا على المقاومة بوصفنا مؤولين مستقلين، رغم أن المجتمع الرأسمالي ودولة الرقابة لا تزالان تستمران في الإلحاح على مستويات الشفافية المزداة.